

الفصل الثامن

العلوم المساعدة لدراسة التاريخ

لغات .

والخطوط والوثائق والخطوط .

الرنوك والأختام .

الجغرافيا .

علم الاجتماع .

الآثار .

النميات .

الرحلات .

الفصل الثامن

العلوم المساعدة لدراسة التاريخ

تتنوع العلوم المساعدة لدراسة للتاريخ باختلاف الأرمئة التاريخية والعصور المختلفة فالعلوم المساعدة لدراسة التاريخ القديم تختلف في طبيعتها عن العلوم المساعدة لدراسة التاريخ الحديث. ثم إن العلوم المساعدة لدراسة التاريخ المصري القديم تختلف عما يحتاجه المؤرخ لدراسة التاريخ اليوناني بمعنى أن دراسة التاريخ القديم تحتاج إلى معرفة لغات الفترة موضوع الدراسة ودراسة الآثار الباقية المثلة لهذه المنطقة أو تلك. فالدارس لتاريخ سومر لابد وان يتعامل مع الأدلة الأثرية واللوحات الطينية المثلة للعصر السومري.

وبالنسبة لمصر فيتعامل مع كل مايجد من آثار ومن أوراق البردي المتشرة في متاحف الدنيا إلى غير ذلك من الموضوعات المعينة علي البحث والدراسة.

ومن المواد المساعدة علي دراسة التاريخ تأتي اللغات في المرتبة الأولى ومعها الموضوعات المتعلقة بها كفقه اللغة ودراسة الخطوط ودراسة المخطوطات والوثائق والبرديات ثم تأتي الجغرافيا وعلم الاجتماع والأدب والآثار والنميات والفنون والرحلات، بالإضافة إلى الوثائق المختلفة من العصور القديمة والعصور الوسطي والعصور الحديثة.

اللغات والمخطوط والوثائق والمخطوطات:

تعتبر اللغات من أهم العلوم المساعدة لدراسة التاريخ إذ لا بد للمؤرخ من إتقان اللغة التي يكتب بها حتي يستطيع أن يعبر تعبيراً دقيقاً سليماً عما يكتب كما

يبحث فيها بمعنى أنه إذا أراد دراسة التاريخ الفرنسي في فترة معينة ونفترض أنها التاريخ الفرنسي الوسيط فمن الأساسي أن يعرف بل لا بد له أن يجيد اللغة الفرنسية القديمة لغة الوثائق حتي يتمكن من دراسة المصادر الأصلية المدونة بتلك اللغة .

كما يتعين علي المؤرخ الذي يعني بتاريخ سورية القديمة أن يعرف لغاتها القديمة من آرامية وعبرانية وسوريانية حتي يتسني له دراسة الوثائق الخاصة بتاريخ تلك الفترة وحل رموزها وقراءة نقوشها .

ويرتبط باللغة معرفة تطوراتها وما يدخل عليها من تغييرات إذ أن لكل عصر من العصور لغته المميزة التي تتفاوت استخدامات كلماتها وتعبيراتها من زمن إلي آخر وكذلك معرفة الخطوط واختلافها ومعرفة عصرها وزمانها، وقد أصبحت دراسة الخطوط باعتبارها من العلوم المعينة لدارسي التاريخ من الدراسات المهمة المتخصصة، وظهرت مؤلفات في هذا الموضوع تضم نماذج للخطوط المختلفة الممثلة للأقاليم والمناطق والعصور . وعلم قراءة الخطوط Paleography أصبح من المهارات الجديدة التي يجب علي المؤرخ أن يهتم بها ويحاول أن يكتسبها وتظهر أهمية قراءة الخطوط بصفة خاصة عند دراسة وتحقيق المخطوطات إذ أنه من الأهمية القصوي للمؤرخ أن يحدد زمن نسخ المخطوط أو زمن كتابته وذلك اعتماداً علي الخط الذي كتبت به .

وقد تطورت الخطوط العربية فظهر منها النسخ والرقعة والثلث والمغربى والفارسي والكوفي والطومار والغبار وسمي كذلك لدقته وصعوبة قراءته كأنه الغبار المتناثر وكان يستعمل في كتابة الرسائل التي يحملها الحمام الزاجل .

وقد ذكر القلقشندي أن المقر الشهابي بن فضل الله ذكر خمسة أقلام وهي : مختصر الطومار ، والثلث ، وخفيف الثلث والتوقيع ، والرقاع .

أما مختصر الطومار لقطع البغدادي الكامل ، والثلث لقطع الثلثين وخفيف الثلث لقطع النصف والتوقيع لقطع الثلث والرقاع لقطع العادة .

ويلحق بالخمسة السابقة ثلاثة أنواع أخرى هي: الطومار الكامل، والمحقق، والغبار. فالطومار يكتب به السلطان علاماته علي المكاتب والولايات ومناشير الإقطاع.

وأما المحقق فقد استخدمت كتابته في طغراوات كتب القانات من ملوك الشرق واستخدم خط الغبار في كتابة بطاقات الحمام والملطفات وما في معناها. وعلى ذلك يكون المستخدم في ديوان الانشاء في عهده ثمانية أفلام. (١)

والطومار نسبة إلي نوع من الورق، فأضيف إليه القلم الذي يكتب به علي ورق الطومار فقد ذكر القلقشندي أن عمر بن عبد العزيز أني بطومار ليكتب فيه فامتنع وقال فيه ضباغ الورق وهو من بيت مال المسلمين، وبالضرورة لا يكتب فيه إلا بقلم الطومار وهذا دليل علي وجوده قبل ذلك ربما يعود إلي عصر معاوية بن أبي سفيان فهو أول من قرر أسور الخلافة، ورتب أحوال الملك. وقيل أنه كان من القصب الأخضر ويمكن أن يكون من القصب الفارسي وفي مصر من البوص الأبيض الغليظ.

أما مختصر الطومار فهو أقل من الطومار الكامل وكان يستخدم في ترويس المكاتب حرصا علي عدم طمسها أما الثلث فهو ثلث مساحة الطومار ويستخدم في كتابة بعض الحروف مثل الجيم والطاء والصاد والغيرها. وقلم الرقاع ومعناه أنه يكتب به الرقاع وهو جمع رقعة وتعني الورقة الصغيرة التي تكتب فيها اللطيفة والقصص، وهو أقصر من قلم الثلث وقلم التوقيع.

وأما المحقق فيكتب به في طغراوات القانات (والقانات تعني ملوك الترك وأصلها خاقان) قال مختصرها، وكانت اللغة التركية تكتب بالحروف العربية أما الوثائق العثمانية فقد كتبت بالخط الديواني أو بخط القيرمة. والخط الديواني من الخطوط العثمانية الذي كتبت به الأوامر السلطانية

(١) انظر القلقشندي: صبح الأعشي. ج ٣، ص ٤٧ : ٤٩.

والخط الديواني من الخطوط العثمانية الذي كتبت به الأوامر السلطانية والفرمانات والأمانات. أما خط القيرمة فسمي كذلك اشتقاقاً من الكلمة التركية قيرمق والتي تعني الشبي والتكسير، وهذا الخط أوجده العثمانيون ليكتبوا به ما يتعلق بالشئون المالية والإدارية وذلك ليحيطوها بالكتمان والسرية، وهذا الخط نوع من الخط السري أدخل إلي مصر في القرن السابع عشر واستخدمه الكتاب الأتراك حتي اختفي في عهد محمد علي عام ١٨٣٤م. (١)

وتعد دراسة الوثائق والمخطوطات والبرديات من الوسائل التي تساعد المؤرخ وتعينه في أبحاثه، فالوثائق هي عيون العصر الذي تمثله، وهي المصدر الأساسي للمؤرخ ودراسة الوثيقة سواء كانت معاهدة سياسية أو اقتصادية أو رسالة ودية بين سلطان وآخر من الأشياء الهامة في عمل المؤرخ.

وقد أصبحت دراسة الوثائق علماً من العلوم الهامة وخاصة دراسة الوثائق البردية التي تمثل عصوراً مختلفة، ولقد اهتمت أوروبا اهتماماً كبيراً بالوثائق عموماً والوثائق البردية خصوصاً، وحفظتها بعناية بالغة في أرشيفاتها وقام المختصون علي تبويبها وتصنيفها وفهرستها وإخراجها في مجلدات تعين الدارسين علي التعرف علي مادة تاريخية أولية مما يشري أبحاثهم ويقدم لها الأدلة الموثوق فيها بدرجة كبيرة.

وقد تمكن الباحثون من التوصل إلي وسائل علمية في تقدير عمر الوثيقة معرفة عمر الحبر المكتوبة به، وتحديد نوع الورق، ومعرفة خصائصه وهنا لا بد أن نشير إلي أنه فيما يتعلق بالتاريخ القديم استطاع العلماء وخاصة العالم الأمريكي Lebbby أن يتوصل ومنذ مطلع هذا القرن إلي استخدام نظرية Carbon 14 في معرفة المخلفات الأثرية المتكربنة وتحديد عمرها الزمني، وقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً في معرفة عمر القمح واللال والعظام، وهذا يمثل إنقلاباً في الوسائل التي تعين الباحث علي إجلاء الغموض الذي يحيط بموضوع من تلك

(١) حسن عثمان: منهج البحث التاريخي - ص ٢٨.

وقارن ليلي عبد اللطيف: دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني. ص ٤٧ وما بعدها.

الموضوعات . وقد استخدم العلماء أيضا الاشعة الحمراء والبنفسجية للتعرف علي الخطوط غير الواضحة أو توضيح المطموس منها.

وقد قام الباحثون باستخراج المصطلحات الحرة والاقتصادية وغير ذلك، وكلها مما يعين الدارس علي دراسة الوثائق والإفادة منها، وتقسّم الوثائق إلي مجموعتين الأولى: وتشمل الوثائق الرسمية وهي تعني كل ما يصدر من الحكومات والهيئات الرسمية في الدولة فيما يتعلق بالشئون الداخلية والخارجية، وما يصرح به أفراد الحكومات وما بحملة مبعوثوها إلي رؤساء الدول، وما يليه مندوبيها في المؤتمرات العامة والخاصة وما يوقعه رؤساؤها أو وزراء مسئولون فيها من اتفاقات ومعاهدات مع غيرهم من حكومات الدول الأخرى.

ولاهمية الوثائق خصصت لها الدول دوراً خاصة للحفاظ عليها ورودتها بالمختصين في الخدمة المكتبية حتي تكون تحت تصرف الباحثين . ولكل فترة من فترات التاريخ وثائقها وأوراقها الرسمية، ويقول الدكتور حسن عثمان إن الوثائق في المعني العام تدل علي كل الأصول التي تحتوي علي معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دون علي الورق، ولكنها في المعني الدقيق الذي اصطلح عليه الباحثون في التاريخ هي الكتابات الرسمية مثل الأوامر والقرارات والفرمانات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية:

أما المجموعة الثانية فتعني الوثائق شبه الرسمية وهي بطبيعة الحال لا تقل أهمية عن المجموعة الأولى ذلك أنها تشمل فيما يكتبه الموظفون الرسميون في الدولة وتشمل أوراق الدواوين وسجلاتها، ومشاريع القوانين، والقوانين المعمول بها في أقسام الدواوين المختلفة، والمعاهدات، والنصوص التي تصل إلي الباحثين إما مكتوبة أو منقوشة، بلغاتها الأصلية أو خلال ترجمات لها ومضابط المجالس التشريعية المختلفة، ومذكرات ويوميات ومراسلات الوزراء وأعضاء الحكومات، وتصريحات الزعماء السياسيين، ومؤتمراتهم إلي غير ذلك مما يدخل في عداد الوثائق .

وإذا توفرت للباحث مثل هذه الوثائق استطاع أن يقدم دراسة علمية موثقة، مدعمة بالأدلة التاريخية من مصادر أولية أصلية وعلي درجة عالية من الصحة خاصة إذا لم تتدخل أيدي الناقلين والناسخين فتغير من حقائقها أو تسقط بعضها من عباراتها مما يؤثر علي الرواية التاريخية فيها والحدث التي تحتوي هذه الوثيقة أو تلك.

وثائق التاريخ الحديث كثيرة وفي متناول الباحثين، ومن ثم فإن الدراسات التاريخية في مجال التاريخ الحديث متقدمة بشكل ملحوظ بينما نجد الدراسات في مجالات التاريخ الأخرى وإن كانت قد تقدمت كثيراً في هذا القرن إلا أن الوثائق ما تزال تحتاج إلي الجهد الكبير والتعاون بين الباحثين للكشف عما تحتويه من معلومات وبيانات جديدة مما يساعد في إيضاح وتفسير كثير من أحداث موضع الاختلاف أو التي لا تزال موضع جدل بين المؤرخين. وعلي الرغم من التراث الإسلامي الضخم الذي بين أيدي الباحثين فإن كثيراً من الوثائق الإسلامية الهامة لم تصل إلينا، وربما يمكن إرجاع ذلك إلي سرعة حركة التاريخ الإسلامي وأحداثه الكثيرة المتلاحقة وترامي أطراف الدولة الإسلامية، وكثرة الدول المستقلة قياماً وسقوطاً مما أدى إلي ضياع ثروة علمية هائلة تمثلها وثائق العصور المختلفة التي تبذرت أو ضاعت مع الأحداث الصاخبة المصاحبة للتاريخ الإسلامي.

كذلك تعرضت بعض الدواوين التي كانت تحفظ فيها الوثائق الرسمية للحريق وذلك مثل ديوان الكوفة الذي تعرض لحريق أتى علي كل ما فيه من وثائق وأوراق رسمية وذلك عام ٨٢٢هـ / ٧٠١م.

كما تعرض ديوان الفسطاط لحريق كبير كان سبباً في ضياع كثير من الأوراق الرسمية، وضياع كثير من وثائق الأمويين في أعقاب الثورة العباسية وكان الغزو المغولي لبغداد وراء ضياع أكبر ثروة وثائقية وعلمية لما تعرضت له عاصمة العباسيين من تدمير وتخريب لكل دورها ومكتباتها ودواوينها.

ولحسن الحظ وصل إلينا عدد من كتب النظم كما وصلت إلي أيدي

الباحثين بعض المستندات والوثائق التي تتعلق بالنظم الإدارية، يشير بعضها إلى النظم الاجتماعية وهي وإن كانت قليلة إلا أن أهميتها عظيمة فيما تقدمه للدارسين من صور تمثل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات الإسلامية.

وتمثل البرديات ووثائق هامة في تاريخ الحياة الاجتماعية والاقتصادية الإسلامية ويهتم الباحثون بالوثائق البردية اهتماماً كبيراً وقد تم العثور على أوراق بردية هامة بالعربية والقبطية في إقليم الفيوم وهي تتضمن معلومات وبيانات هامة عن الإدارة في مصر في عصر الولاة، والحياة الاجتماعية في مصر الإسلامية. ويركز الباحثون الآن جهودهم من أجل ترتيب وتنسيق هذه الوثائق لأهميتها القصوى في الدراسات التاريخية ذلك أنها تمثل صورة صادقة للنظم المالية والإدارية والاجتماعية للمصور التي كتبت فيها.

ومن الإكتشافات الهامة العثور على أوراق الجنيزا Geniza التي عثر عليها في غرفة ملحقة بالمعبد اليهودي بالفسطاط، والتي كان الكشف الحقيقي لها في عام ١٨٩٠م حين تناقلتها أيدي المستشرقين وباعة المخطوطات في القاهرة ومن ثم وصلت أجزاء كثيرة منها إلى مكتبات أوروبا وأمريكا.

كانت أكبر مجموعة من الوثائق الجنيزية Geniza Documents هي التي وصلت إلى مكتبة البودليان باكسفورد Bodelian Library والتي باعها إلى الحاخام اليهودي (حاحام القدس) سليمان ورثيمر، كما أن هناك مجموعة كبيرة منها وصلت إلى فيلادلفيا، وثالثة تملكها المكتبة العامة في لتجراد.

أما أهم مجموعة علي الإطلاق فهي ما استطاع الرحالة الانجليزي إيلكان أدلر Elkan Adler أن يحصل عليها خلال زيارته لحجرة الجنيزا في الفسطاط وكان ذلك في يناير عام ١٨٩٦م، وهذه المجموعة توجد الآن في مكتبة معهد اللاهوت اليهودي في نيويورك.

ويقول المستشرق اليهودي جويتين إن الوثائق الهامة التي تمثلها الجنيزا قد بيعت علناً بعد الحصول عليها من مقابر البساتين في القاهرة وذلك عام ١٩٠٨م.

وقد أدى هذا بالإضافة إلي ما سبق أن تعرضت له الوثائق من بيع وشراء إلي تفرقها في مكتبات أوروبا وأمريكا.

ووثائق الجنيزا تقدم صورة صادقة للحياة اليومية الاجتماعية والاقتصادية، لطائفة

من طوائف المجتمع المصري وإن كان ديفيد كدفمان لا يعتقد في قيمة تلك الأوراق . وعلي الرغم من تعرض هذه المجموعة من الوثائق للتلف، فإن فيها وثائق كثيرة في حالة جيدة، ويصف صاحب دراسة في مجتمع البحر الأبيض المتوسط المستشرق اليهودي جويتين Goitein خطاباً حفظ ضمن أوراق الجنيزا أرسل من اليمن إلي الهند، ووصل هذا الخطاب إلي مصر ليستقر في هذه المجموعة الوثائقية ورغم الرطوبة وطول الرحلة الزمنية التي قضاها الخطاب التي بلغت ثمانمائة عام إذا أرسل عام ١١٤٩م فإنه لا يزال في حالة جيدة خطه واضح ومفرو. (١)

ولا تزال الدراسات في هذا المجال تحتاج إلي اهتمام أكبر حتي تتيح مصادر جديدة لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لطوائف القاهرة

وللمخطوطات أهمية عظيمة في الدراسات التاريخية إذ أنها تمثل التراث المكتوب وتغطي المخطوطات العربية وغير العربية مجالات شتي من مجالات المعرفة تغطي المخطوطات الخاصة بالتاريخ الإسلامي باهتمام كبير، ومع ذلك فهي لا تزال تحتاج إلي اهتمام أكبر من العلماء والباحثين لتقدم في شكل يمكنهم من الاستفادة بها وهذا ما يسمي إصلاحاً بتحقيق المخطوطات.

وتحقيق المخطوطات من الدراسات الشاقة التي تتطلب صبراً وعلماً وخبرة ودراية بأنواع الخطوط وأساليب النسخ علي مختلف العصور. وهناك دراسات خاصة بهذا الموضوع من أهمها ما قدمه الأستاذ عبد السلام هارون بعنوان: تحقيق النصوص ونشرها وفيه يبين الخطوات التي يجب أن يتبعها الباحث في تحقيق ونشر مخطوطات.

ولما كانت المخطوطات العربية تنتشر في مكتبات الدنيا، فعلي الباحث الذي يرغب في تحقيق مخطوط بعينه أن يتحقق من وجود نسخة وحيدة للمخطوط موضوع

الدراسة أو أن له عدة نسخ فعلية وفي هذه الحالة الحصول عليها جميعاً ليختار أصلها أصلاً للتحقيق.

أما في حالة كون المخطوط واحداً فسيكون هذا هو أصل التحقيق، وأما إذا كانت له صور أو نسخ مختلفة فعلية أن يختار أكمل وأحسن تلك النسخ وأقدمها إن أمكن وأقربها إلى العصر الذي تعالجه لتكون المخطوطة الأم أو الأصل الأول للتحقيق. ثم علي الباحث أن يتأكد من نوع الورق ونوع الحبر والخط وهناك وسائل كثيرة تعينه علي ذلك كما أن هناك خبراء في الخط ومعرفة عمر المخطوط يمكن أن يستعين بهم، ثم يبدأ بعد ذلك قراءة النص وضبطه وإعداده للنشر. وهو في ذلك يستعين بالمصادر المعاصرة التي أفاد مؤلفوها من تلك المخطوطة.

وبعد أن يعايش النص ويدرس عصره ومؤلفه ويرى مؤلفاته إن كان كتب غير تلك المخطوط يهين مخطوطه ويعدده للنشر.

الرنوك والأختام :

الرنوك هي علامات مميزة وضعها السلاطين علي دروعهم وسيوفهم وملابس الجنود والنبلاء وعلي الرايات والبنود والأعلام لتمييزها والدلالة علي الدولة. وقد لجأ السلاطين الأيوبيون والمماليك إلي ذلك، ومن تلك العلامات السيف والكأس والدواة والنسر وذيل الحصان والهلال وغير ذلك من العلامات.

ومعرفة الرنوك والأختام والعلامات الخاصة بكل سلطان تمكن الدارسين من تمييز الأدلة الأثرية التي تقع تحت أيديهم ونسبتها إلي العصر الذي تنتمي إليه، وقد لجأ العلماء إلي هذه الطريقة منذ أن بدأت الدراسات الأثرية، وذكر لنا Emery أنه استطاع أن يميز عدداً كبيراً من الآثار الخاصة بالأسرتين الأولى والثانية وذلك من قطع أثرية عبارة عن أغطية القدور الفخارية من ذلك ختم قدر للورير المصري حماكا. وقد اعتبرها Emery من أهم المصادر التاريخية لتلك الفترة وقد عقد فصلاً

كاملاً في كتاب Archaic Egypt عن هذه العلامات (١).

وتأتي أهميتها من أنها تسجل أحداثاً هامة جنباً إلى جنب إلى إحتوائها علي معلومات عن نوع الطعام أو الشراب الموجود بداخل القدر. ولعل هذه المقارنة لا تكون غريبة ذلك أن الإنسان منذ عصور استقراره الأولي كان يميل إلي التنظيم، والرنوك والاختام في الواقع ما هي الا نوع من التنظيم والتنسيق لشارات وأدوات الدولة.

وإذا عدنا للحديث عن رنوك العصور الإسلامية فإننا نقول أنه كان لكل طائفة من الطوائف علاماتها المميزة كما كان لكل فرقة من الجيش أيضاً علاماتها ورنوكها مثال ذلك أن الدوادارية كانت لهم رنوك جاءت علي آثارهم، ويذكر لنا ذلك الدكتور حسن الباشا فيقول: وعن الدوادارية وصلتنا نقوش وكتابات أثرية توضح أسماءهم ووظائفهم مصحوبة برنوكهم وكانت علي هيئة دواة، وكان السلطان يعطي الرنوك لأمرائه بما يتناسب مع وظائفهم، وكان الأمير يحتفظ برنوكه حتي إذا إنتقل إلي وظيفة أخرى (٢).

ومن الطريف الإشارة إلي أن المتحف الاهلي بفلورنسا يحتفظ بمشكاة تحمل اسم الأمير طغيتمر الدوادار المالكي الصالحى وعليها رنوكه المركب من الكأس والدواة.

الجغرافيا:

تعد الجغرافيا من أهم العلوم المساعدة لدراسة التاريخ ذلك أن العلاقة وطيدة بين ما يحدث الإنسان في بيئته وبين الأحداث التاريخية كما أن الحدث التاريخي الذي يقع في زمان بعينه لا بد وأن يتم في مكان بعينه. والبيئة والإنسان هما موضوع التاريخ، وهنا يتضح الدور الذي تلعبه الظواهر

(1) Emery, Archaic Egypt, 194:202

(٢) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف علي الآثار العربية-ج ٢ ص ٥٣٢.

الجغرافية في التأثير علي تجربات الاحداث، فكم من الظواهر الطبيعية والجغرافية كانت من العوامل الحاسمة في تغيير نتيجة حرب من الحروب، وكم من الظواهر الطبيعية كانت وراء تغيرات سكانية عظيمة كما كانت الظواهر الجغرافية وراء هجرات الإنسان واستقراره وإقامة حضارات المجتمعات المستقرة وكان ذلك وراء عمران الكون، وعمران الأقاليم وكان للبيئة الجغرافية أثرها في قيام الحضارات الأولى فحول الأماكن الخصبة وحول وديان الأنهار قامت أولى الحضارات الانسانية

إن ما تقدمه البيئة الجغرافية من وسائل وخامات تعين الإنسان علي بناء مجتمعه ويمكن للإنسان أن يطوع قدراته وخبراته لاستخدامها والعيش فيها، وكذلك في مناطق المناخ نري الإنسان يستخدم كل ما تقدمه له البيئة من أجل الطاقة وتطوير صناعته وتجديد وسائلها وأساليبها.

وفي مصر كان لنمو نبات البردي مثلاً أثره في أن المصري القديم ابتكر صناعة البردي ثم التوصل إلي استخدامه في الكتابة ليسجل عليها صفحات خالدة من التاريخ الإنساني.

وفي العراق حيث لم يتوفر البردي استخدم الإنسان ألواح الطين ومن ثم ابتكر الخط المسماري وطوع بذلك ما قدمته البيئة الجغرافية.

ومما لا شك فيه أن الأمثلة كثيرة متنوعة توضح أهمية البيئة الجغرافية من مناخ وتضاريس وأراضي خصبة وأراضي صحراوية وجبال وأودية وأنهار إلي غير ذلك من ظواهر البنية البيئية مما له الأثر الكبير في صنع تاريخ منطقة من المناطق.

ومما تجدر الإشارة إليه دور الجغرافيين في اكتشاف الظواهر الجغرافية وخاصة دور الجغرافيين المسلمين، وما ابتكروه من آلات وما وضعوه من أزياج وجداول فلكية لرصد حركات النجوم والأجرام السماوية مما يعد أنجازاً رائعاً في ذلك المجال.

كما أن وصفهم للبلدان وتقسيمهم للأقاليم وتسجيلهم لعادات وتقاليد الشعوب كان له نفع الأثر في تسهيل دور المؤرخ وإعانة علي دراسة التاريخ.

علم الاجتماع :

علم الاجتماع من العلوم التي لا يمكن للمؤرخ أن يستغني عنها في دراسة التاريخ، فلما كان علم الاجتماع يعني حركة المجتمع وتطوره ولما كان المحرك لأي مجتمع هو الإنسان وما يحيط من ظروف فقد برزت أهمية علم الاجتماع في الدراسات التاريخية، فهذا العلم يساعد المؤرخ في إثراء فكره التاريخي وتوسيع دائرة إدراكه للأحداث. وقد كان ابن خلدون المؤرخ هو مؤسس علم الاجتماع، ومقدمة ابن خلدون الجليلة القدر في الدراسات الاجتماعية لها نفس المكانة في الدراسات التاريخية.

وقد شهد علم الاجتماع تطورات كثيرة فظهرت فروعه المختلفة منها علم الاجتماع السياسي الذي يرتبط أشد الارتباط بالتاريخ وفيه يدلي عالم الاجتماع بالتفسيرات الاجتماعية للأحداث التاريخية أو لعلنا يمكننا أن نقول أن الباحث في علم الاجتماع يتناول الأحداث التاريخية في إطار تحرك الجماعات ونموها وتطورها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بما يتضمنه هذا من عوامل مختلفة تظهر في مجتمع من المجتمعات.

الأدب :

ارتبطت نشأة الأدب بنشأة الإنسان وهو يعبر بالأدب عن مجالات حياته المختلفة نشراً وشعراً وقصة وملحمة إلي غير ذلك من فنون الأدب المختلفة، فقد عبر الإنسان القديم عن تطوره الفكري خلال العصور المختلفة بالأدب، وعبر عن تطور فكره الديني من خلال الأدب، كما عبر عن مراحل حياته تقدماً وتخلفاً بالأدب ويمكن للمؤرخ أن يعتمد علي الأدب، في دراسته للتاريخ باعتباره مصدراً حياً للفترة التي يمثلها.

ففي مصر القديمة كان الأدب إنعكاساً صادقاً معبراً عن حياة المصري القديم فقصة أياور والفلاح الفصيح والملاح الغريق، وسنوحى وإحساسات الغريب فيها

وحنينه إلي الوطن تعبير عن ملامح الشخصية المصرية، كما تقدم نماذج من مشاعر
الأديب المصري في مواقف مختلفة.

ولدينا من الأدب المصري القديم روائع أدبية تمكس الحالة الاجتماعية في
عصر الانتقال الأول، حيث اضطرب الأمن وعمت الفوضى واختلت المعايير
الاجتماعية واهتزت القيم في المجتمع فيقول في ذلك الحكيم إيب ور في ذلك
تدور البلاد كما يدور دولاب الفخار حقاً. إن النيل لا يزال يفيض ومع ذلك: لا
يقوم بحرارة الأرض أحد من الفلاحين لأن كل شخص يقول إننا لا نعلم ما سوف
يحل بالبلاد حقاً، لقد خربت البلاد وخيم عليها الحزن مقروناً بالمويل والبكاء.
ثم يقول إيب ور:

إن النبلاء ليزيد بؤسهم وأن الأدنىاء لتفيض قلوبهم بهجة وسروراً، إن شعار
كل مدينة أصبح: لنطرد الأغنياء من بيتنا، حقاً لقد أصبح الذهب والفضة
والأحجار الكريمة في رقاب الإماء في حين أصبحت الحرائر تسري في البلاد
وتقول السيدات المرفهات آه لو وجدنا ما نأكله، هناك لم يعد بعد موظف يشغل
الوظيفة اللاتقة به، وأصبح الناس كقطع من غير راع قد استبد به الروع، هاك
من كان يرتدي الملابس الجميلة من قبل أصبح يغدو في أسمال بالية في حين من
كان لا يستطيع الحصول علي ملابس له أصبح يرتدي الكتان الفاخر، هاك من لم
يكر يجد بالأمس خبزاً أصبح يمتلك شونة غير أنه يملأ أهراده بمتعلقات غيره.

وتوضح القطع الأدبية المماثلة الحالة التي عانت منها البلاد، وتبين لنا
شكايات الفلاح الفصيح المساوي الاجتماعية وتفشي السرقة والخداع وإنحطاط
القضاء وأنه لا علاج لهذه المساوي إلا إذا حل القانون محل الظلم والاستبعاد
والفرضي وإلا إذا امتنع الموظفون عن الرشوة وإلا إذا ساد العدل شبيون
القضاء.

وإذا أخذنا نمودجا من الأدب العراقي القديم نجد أنه أيضاً ينبض بإحساس
الأديب تعبيراً عن ظروفه التي يحياها في مجتمعه، فمثلاً نجد جلجامش الإنسان

يواجه بالحقيقة المروعة حقيقة الموت، عندما يفقد صديقه فيهم علي وجهه في كل مكان عله يصل إلي تفسير لتلك الظاهرة.

وغنل الإلياذة والأوديسا الأدب اليوناني القديم، وهي من أروع الأدبيات التي تركها الإنسان اليوناني القديم، إن هوميرو وهو يرسم لوحته الفنية الرائعة مصوراً للصراع والتنافس والحرب يعكس صورة للمجتمع اليوناني القديم.

ويقول الأستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيي: إن الأدب لا يقل عن أي مصدر آخر في أهميته، ويضيف أرجو ألا أكون مبالغاً إذا قلت أنه ربما كان أهم من الوثائق الرسمية التي تعطي عادة إن لم يكن دائماً وجهة نظر جانب واحد من المجتمع وهو جانب الحكام سواء أكان هؤلاء الحكام أفراداً أو كانوا يمثلون طبقة.

والتاريخ إذا أريد له أن يصبح كائناً حياً نابضاً وليس مجرد سجلات جافة لمجموعة من الحكام لا بد أن تكتمل أبعاده ولن يتم ذلك إلا بالتعرف علي كافة جوانب المجتمع وذلك من خلال الأدب.

وهوميروس شاعر اليونان الأعني استطاع في ملحمتيه الإلياذة والأوديسا أن يصور عصره كاملاً من حياة اليونان. ركز فيهما علي الحروب الدائرة بين اليونان والفرس، وبين القواد اليونانيين المحاربين أنفسهم، حتي يمكن القول أن الإلياذة والأوديسا تاريخ حقيقي لشعب اليونان.

ومن المصادر الأدبية الهامة لأوروبا النهضة ما كتبه دانتي الليجيري في

الكوميديا الإلهية (1) The Divine Comedy

ودانتي الليجيري الفورنسي يقدم للدارسين قطعة أدبية ملحمة رائعة يستطيع المؤرخ فيها أن يري دانتي وتاريخه وتقسيماته للأرض، وتصوره للجحيم وتقسيمه له متملاً الإنسان ومعاناته للألم، وتقلبات الإنسان بين الأحاسيس البشرية المختلفة ويرتفع دانتي ويخلق في الآفاق العالية ثم يسقط متخبطاً في الرذيلة والخطيئة، وهو حين يأخذ الإنسان إلي جبل المظهر يرمز إلي الإصلاح من أجل مستقبل أفضل.

(1) Dante: The Divine Comedy. Translated by Sayers & Barbara Reynolds. 3 Vols. London. 1966

ومن خلال الحياة القاسية التي عاشها دانتي في المنفى ومن خلال إحساسه المرهف ومشاعره الرقيقة صاغ ملحمة أو كوميديته التي تمثل الحياة في إيطاليا فيل عصر النهضة

والكوميديا الإلهية تجمع عناصر كثيرة في نسيجها المعجب، فهي تمثل ثقافة دانتي الواسعة العريضة المتنوعة، وفيها فكر من الشرق ومن الغرب من الشرق ومن الغرب، وفيها مؤثرات إسلامية كما يذهب فريق من المفكرين فقد تأثر Dante بمشاهدات النبي ﷺ ليلة عرج به إلى السماء فاقبها اقتباساً خاطئاً في رأينا إذ لم يوفق في عرضة للفكرة ولا للموضوع.

وفيها السياسة والدين والفن والأدب، وفيها الفضيلة والرذيلة، وفيها شقاء الإنسان ونعيمه وسعادته وبالرغم من أن مسرح الأحداث التي يعالجها دانتي هو العالم الآخر إلا أن المؤرخ يستطيع أن يلمح الرمزية فيها وكيف أن دانتي يريد عالماً أفضل كما يريد سعادة الإنسان. وهو في ذلك يرسم صورة المجتمع كما يتمني وهو في هذا يعيد إلى الأذهان الصورة المثالية للدولة التي رسمها من قبل المفكرون اليونانيون ومن بعدهم المفكرون المسلمون.

والكوميديا الإلهية تعكس ثقافة دانتي الدينية والسياسية والذاتية فهي تعبر عن أوروبا في عصره، كما تعبر عن القلق والتغيير الذي عاشته أوروبا بعد زوال العصور الوسطى وانها سلطة الدولة والكنيسة معا.

وتمضي بنا مسيرة الأدب حية نابضة مع تاريخ البشر، ليعيش الإنسان حياته في عصر النهضة، والأدب فيها خير تعبير عن حركات وأفكار شعوبها وتطوراتها الدينية والسياسية والاجتماعية. ثم يأتي العصر الحديث ونرى الأدب فيه تعبيراً صادقاً عنه، حيث عصر القلق الذي أنتج أدب القلق.

والحركة الأدبية في كل العصور إنما هي إنعكاس لمشاعر المجتمعات حزن بعضها، كما أنها تقدم أفكار الأدباء الناتجة عن تجاربهم الذاتية وآرائهم السياسية وانتماءاتهم الفكرية، كما تعبر عن خوف الإنسان وحروبه الكثيرة وصراع الأيدولوجيات

المتناحرة، ولعل ما كتبه الأديب الإنجليزي orwell. في كتابة القصص أو بالآخر في روايته الساخرة الرمزية Animal Farm مثال رائع علي صراع الأيدولوجيات وزيف الشعارات والقيم الفارغة التي تنادي بها تلك الفلسفات المحدثه. وقد ثبت حدث Oewell وانهارت تلك النظريات وضاعت هيبتها وانتهت إلي الأبد أسطورة الشيوعية وانهارت نظرية ماركس، وظهرت قوي جديدة أهمها دول الكمنولث وذلك بعد إنهيار الإتحاد السوفيتي المعقل الاساسي للنظرية الشيوعية فكراً وتطبيقاً. والادب الفرنسي الذي كتبه كثيرون في العصر الحديث يمكن المؤرخ من معرفة فرنسا ما قبل الحرب ثم حياتها وتاريخها وأخبار شعبها ومعاناته، وما طرا علي قيمه وأخلاقه وعاداته من أثار سيئة للحرب العالمية الثانية. وهذا يؤكد أهمية الأدب وقيمه كسجل حى يعين الدارس في التاريخ، ويضع أمامه صورة متكاملة للمجتمع في الفترة التي يمثلها الأديب.

وأدبنا في مصر الآن، أدب التفاضل والعودة إلي الأصول الأولي للمصريين والقيمه الاصيله للمجتمع وحب الوطن والارض، والتفاني من أجل مصر القيم التي انصهرت فيها الحضارة القديمة داخل بوتقه الاسلام يمثل المرحلة التي نعيشها وهذا مثال صادق علي مدي معايشة الأديب لأحداث مجتمعة، وصدق تصويره للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في زمانه، وهو أيضاً أصدق الناس تصويراً للأخلاق والقيم والذوق العام، وهو العين التي تقدم للمؤرخ فيما بعد صور صادقة لفترة عايشها وعاصرها وأحس بها فصاغها أدباً شعراً ونثراً ومسرحاً وملحنة وأغنية وزجلاً وقصة.

الآثار:

لايمكن لدارس التاريخ أن يعمل دون الاعتماد علي الآثار التي تمثل العصر الذي يقوم بدراسته. ففي العصور القديمة تقدم الآثار الأدلة الناطقة لحضارة الإنسان وحياته وتقدمه أو إتحطاطه وتدهور حضارته. وكذلك في العصور الوسطي يعتمد المؤرخ علي الآثار، وللأدلة الأثرية أهميتها الحيوية في إثبات وتأكيد وتوثيق الحقائق

والمعلومات التي يأتي بها المؤرخ ، والأثار الإسلامية المنتشرة في أنحاء الدنيا خير دليل علي إنجازات المسلمين كما أنها خير عون للمؤرخ لدراسة عصر من العصور التاريخية

إن آثار القرى والمدن، والمعابد والمسلات والخرابيش علي جدران المعابد المختلفة والتي تضم أسماء الملوك، والنقوش التي تخلد ذكرى انتصارات الشعوب في حروبها وفي كفاحها والمساجد والمدارس والكنائس والمدن كلها أدلة ناطقة علي عبقرية العقل البشري والرخاء والعمران والسلام .

النميات :

تعد النميات والمسكوكات والعملة من الوسائل المينة والعلوم المساعدة للمؤرخ، فهي تمثل العصور المختلفة التي ضربت فيها. وهي توضح حكم الملوك والسلاطين والخلفاء ومدي استقلال الإقليم أو تبعيته تنتمي كما تعكس الحالة الاقتصادية للعصر الذي ينتمي إليه فقراً و غني رخاء واستقراراً فقيمة العملة وما بها من ذهب أو فضة، تمثل الجودة، والعملة وما بها من معادن خسيسة تمثل الرداءة، وذلك خير دليل علي اقتصاد العصر الذي تمثله .

الرحلات :

تمثل الرحلات شغف الإنسان ولا سيما الرحالة بالمعرفة والتقصي واستطلاع أخبار وأحوال الشعوب المجاورة. والرحلة قديمة في حياة الشعوب، فالمؤرخ اليوناني هيردوت قام برحلاته إلي الشرق وزار مصر وكتب عن أهلها وعاداتهم ونظمهم ودياناتهم واقتصادهم وأساطيرهم مما يقدم صورة حية ناطقة لفترة من تاريخ مصر .

كما قام الجغرافيون أيضاً برحلات كثيرة وسجلوا مشاهداتهم عن البلدان التي زاروها .

والرحالة المسلمين مكانة مرموقة في ذلك المجال، غنقد سافروا وجابوا
العالم دون كلل، ودونوا أخبار الاقاليم والبلدان، واثروا المكتبة التاريخية بمعلومات
قيمة تعين المؤرخ في دراسته.

ومن أهم الرحالة المسلمين ابن جبير وابن بطوطة اللذين جالا في البلدان
مضورين أحوال الناس وطرائق حياتهم، وسجلا إنطباعهم عن نظمهم وتوارثهم
وحضارتهم، وزيههم ومساكنهم وأسواقهم، كذلك من أهم الرحالة المسلمين المؤرخ
المسعودي الذي جاب البلدان وكذلك المؤرخ المصري القضاعي الذي رار بلاد الروم
ومثل مصر سفيراً لدي البلاط البيزنطي.

وعلي هذا نري أن علوماً كثيرة متنوعة اعتبرها المؤرخون خير معين لهم في
دراسة التاريخ ويمكننا أن نضيف علوماً جديدة ظهرت في النصف الأخير من هذا
القرن مثل الإحصاء والعلوم السياسية والدراسات الاستراتيجية وغير ذلك من
التخصصات الجديدة التي لا شك أنها تفيد المؤرخ وتضفي علي فهمه للتاريخ
أبعاداً أرحب من أجل البحث الدقيق عن الحقيقة.